

تجليات النزعة الخيامية في قصيدة "الطلاس" لإيليا أبي ماضي

أبو الحسن أمين مقدسي^(*) وصبري أحمديان^(**) و أبو بكر محمودي^(***)

(*) أستاذ بقسم اللغة العربية وآدابها، جامعة طهران؛

(**) طالبة بمرحلة الماجستير بقسم اللغة العربية وآدابها، جامعة طهران

(***) طالب بمرحلة الدكتوراه بقسم اللغة العربية وآدابها، جامعة طهران

(قدم للنشر في ١٢/٢/١٤٣٧ هـ، وقبل للنشر في ١٢/٣/١٤٣٨ هـ)

الكلمات المفتاحية: إيليا أبو ماضي، الطلاس، الخيام، الرباعيات، الرؤى الفلسفية.
ملخص البحث: تعدُّ قصيدة الطلاس لإيليا أبي ماضي من أشهر وأهم قصائد هذا الشاعر، إذ هي فتحة إلى عوالمه الشعرية وخلجاته الروحية وما انتابه من هموم وأحزان. رغم أن القصيدة لا تتسم بالوحدة الموضوعية، غير أن الشاعر بتوظيفه كثيرًا من المفردات الرنانة وبعده عن التكلف والتصنع تمكّن من خلق إحدى أهم قصائده الشعرية التي تأثر فيها من أفكار الفيلسوف والرياضي الإيراني الخيام النيسابوري تأثرًا بارزًا. تبلور ذلك التأثير خلال ما جسده أبو ماضي في تلك القصيدة من آراء الخيام الفلسفية والمعادية للتيار السائد كإيانه بالمدسة اللأدرية وتوسيع دائرتها إلى كافة مظاهر الطبيعة كالبحر، والنجم، والشجر، والغاب، والتراب، وما إلى ذلك، ثم في شكه في قدم العالم أو حدوده واعتقاده بلغز الكون وعجز العقل عن حله واعتقاده الجازم بالجبر دون الاختيار وفي إسائه إلى كثير من المقدسات الدينية كالديورة والصوامع ووصف عقول أصحابها بالنتنة الآسنة، وأخيرًا في إشادته بالخمر والصهباء وكونها نورًا في عين الشاعر وشعورًا في قلبه وضياءًا. تمكن الباحثون خلال المقال أن يثبتوا هذه الدعوى باستخدامهم المنهج التوصيفي - التحليلي في تحليل القصيدة، وخلصوا إلى النتيجة أن قصيدة الطلاس مرآة تعكس أفكار الخيام بوضوح وجلاء، وتصوّر تلك الأفكار بأسلوب بارع.

Reflection of Khayyam opinions in Al-Talasim ode from Elia Abu Madi

Amin Mogadasi^(*); Sabri Ahmadian^(**); Abubakr Mahmoudi^(***)

^(*) University of Tehran, Faculty of literature and humanities, Department of Arabic Language and

^(**) University of Tehran, Faculty of literature and humanities, Department of Arabic Literature;

Language and Literature & ^(***) University of Tehran, Faculty of literature and humanities,
Department of Arabic Language and Literature

(Received 2/12/1437H; Accepted for publication 12/3/1438H)

Keywords: Elia Abu Madi, Al-Talasim, Khayyam, odes, philosophy.

Abstract: The “Al-Talasim” is the one of most famous and important odes from the the “Elia Abu Madi”, who his poems are very well known among Arabs. Although, “Al-Talasim” does not signify a solitary concept, but due to poet approach (utilizing of beautiful terms and avoidance of complexity), it profoundly reflected opinions, internal emotions and feelings of the poet. Elia Abu Madi at this ode, had been severely affected by “Omar Khayyam”, an Iranian mathematician, philosopher and poet. This is resulted from the poet tendency to “Agnosticism”, a special view that emphasized the existence cannot be proven or disapproved. Also he believed and thought that peoples do not have any authority from themselves, so they must drinking, to get rid of all problems. In summary, Al-Talasim reflected that the Elia Abu Madi deeply affected by Khayyam opinions.

مقطع بعبارة (لست أدري). وأمّا على الصعيد الفني فليست القصيدة من أقوى قصائد أبي ماضي وإنما تكمن أهميتها في موضوعها وأسلوبها الحوارية الممتع، وكأنه حوار بين الشاعر وطرف آخر، الطبيعة مرة، والإله مرة أخرى، والموت ثالثة و... .

تفوح رائحة من الأفكار الفلسفية الخيامية في هذه القصيدة مما دفع الباحثين إلى سبر أغوار هذا الموضوع والإجابة على هذه التساؤلات: هل كان أبو ماضي في طلاسمة الشهيرة متأثرًا من أفكار الخيام (١) الفلسفية؟ لو افترضنا بصحة ذلك كيف تجسّد ذلك التأثير خلال طلاسمة؟ وأمّا المنهجية التي تخطيناها للإجابة على التساؤلات المذكورة فكانت منهجًا وصفيًا - تحليليًا على أساس المدرسة الأمريكية في نقدها وتحليلها عن الأدب المقارن، وهي في الأساس تعتمد في دراستنا الحالية على تحليل الشواهد الشعرية ومقارنتها ببعضها استخلاصًا للوجوه المشتركة والوجوه التي تأثر منها المتأخر (أبي ماضي) عن المتقدم (الخيام).

(٢) وُلِدَ الشاعر والفيلسوف والرياضي الشهير الإيراني الخيام النيسابوري في مدينة نيسابور في القرن الخامس للهجرة بعام ٤٣٩ على أرجح الروايات، وتوفي بعام ٥٢٦ الهجري، لُقِّبَ بألقاب مختلفة كغيث الدين وحجة الحق وغيرها. عَزِيَّ إليه كثير من الرباعيات غير أنّ هناك خلاف في صحة معظمها (انظر: كريستين سن، ١٣٧٤: ١٣).

المقدمة

يعدّ إيليا أبو ماضي (١) أحد أكبر شعراء المهجر والأدب العربي المعاصر، وله قدرة متفوّقة في القول بالشعر. يعدُّ عدد من قصائده أبعد صيتًا وأوسع شهرة من غيرها كالطلاسم، والحياة، والملك الجائر، والعنقاء. قصيدة الطلاسم على شكل الرباعيات تمثّل بتفاصيلها وبتمامها عددًا من الأسئلة الفلسفية تتمحور حول الوجود، وكيفية بدء الحياة وحول نهاية العالم وكون البشر من أين جاء؟ وإلى أين يسير؟ وما إلى ذلك من تساؤلات. تشتمل القصيدة على ٢٨٤ بيتًا، وتتوزع على سبعة أقسام (المقدمة، البحر، في الدير، بين المقابر، القصر والكوخ، الفكر، صراع وعراك)، ويتمتع كل قسم منها بمقاطع عديدة ملئها التساؤل وينتهي كل

(١) اختلف العلماء في تحديد تاريخ ميلاد إيليا أبي ماضي، والأرجح أنه ولد في عام ١٨٨٩ في قرية محيضة من توابع قضاء متن الواقعة في لبنان. تلقى تعليمه البدائي في قريته وغادرها بسنة ١٩٠٢ إلى الإسكندرية، وتمكّن بعام ١٩١١ من نشر أول ديوانه الشعري والذي يحمل عنوان "تذكار الماضي" في مصر. نشر ديوانه الثاني في عام ١٩١٨ تحت عنوان ديوان إيليا أبي ماضي، ثم انتشر منه ديوان الجداول بسنة ١٩٢٧، وديوان الخائل ١٩٤٦، وكان له قدم راسخة في تأسيس جمعية الرابطة القلمية وكان من أبرز شعرائها، إلى أن وافاته المنية في عام ١٩٥٧ وهو في ذروة نشاطاته الصحفية والأدبية. تجدر الإشارة أن ديوانه الأخير المعنون بالتبر والتراب انتشر ثلاث سنوات بعد وفاته بعام ١٩٦٠.

نقاط عدة من أفكار الخيام وإيليا أبي ماضي، فهذه الدراسات بمجملها ليست بكافية في تجسيد آراء الخيام في قصيدة الطلاس، الأمر الذي حمل الباحثين باكتناؤه أسرار هذا الموضوع.

وفيما يتعلق بآراء الخيام وفلسفته فقد اعتمدنا لاستخراجها على رباعياته المعتمدة بين هذا الكم الهائل من الرباعيات المشتبهة والمنحولة، وهي زهاء سبعمائة رباعية، فما اعتمدنا إلا على التي كانت منتقاة مختارة لدى الكثير من العلماء والنقاد، كمحمد علي فروغي، وقاسم غني، ودشتي وغيرهم، ومن ثمّ فقد تقلّلت حاشية الشك في تلك الرباعيات إلى درجة ملحوظة. وقبل أن ندخل في صلب المقال مباشرة من الضروري أن نجيب على هذا التساؤل: كيف تأثر أبو ماضي من رباعيات الخيام؟ هل كان هو يتقن اللغة الفارسية إتقاناً فتعرّف على الرباعيات مباشرة؟ أم أنه تعرّف عليها بصورة غير مباشرة وعن طريق ترجمتها الإنكليزية أو العربية؟ لاشك أن أبا ماضي لم يكن يتقن اللغة الفارسية، وبما أنه لم يكن يجب اللغة الإنكليزية فيغلب الظن أنه تأثر من الترجمة العربية للرباعيات، وفي عصر الشاعر كان قد ترجم من تلك الرباعيات ثلاث وهي: ترجمة أحمد رامي، ومحمد السباعي، ووديع البستاني، وهذا رغم قول بعضهم: أن أبا ماضي كان متأثراً من الترجمة الإنكليزية للرباعيات (انظر: الجيوسي، ٢٠٠٧: ١٧٧-١٧٨).

وفيما يتعلق بخلفية البحث فقد كتب "محمد زحمتي" مقالاً تحت عنوان "بررسي تطبيقي طلاس إيليا أبو ماضي بارباعيات خيام" وتناول شيئاً من تأثير أفكار الخيام على قصيدة الطلاس، غير أن هذه الدراسة لا تروى الغليل، وذلك لأن كاتبها لم يتطرق إلى كافة جوانب الموضوع واكتفى بإشارات عابرة دون تحليل ولا تدقيق في كثير من المواضع، وتمت كتابة مقال آخر تحت عنوان "فلسفة الخيام في الرباعيات، بين الوجود والعدم، وبين الزهد والتصوف" للدكتور حسين جمعة، والمقال كما يتضح من عنوانه انحصر على الرباعيات فحسب، كما أنه يفتقر إلى تنسيق قويم ولم يكشف الكاتب عن جماليات الكثير من تلك الرباعيات، نظراً لعدم اعتماده على الرباعيات الفارسية للخيام، وإنما على ترجمتها العربية، مما آل إلى فقدان قسم كبير من جماليات التعبير فيها. وطبع مقال آخر يحمل عنوان "الذهول والغموض بين الخيام وإيليا أبي ماضي" في الرقم ١٣ من مجلة الجمعية الإيرانية للغة العربية وآدابها، وحصل كاتبه على النتيجة أن كلا الشاعرين يجنحان إلى الشك والقنوط في كثير من الشؤون، ويدعوان إلى التفكير والتعقل في شعرهما، كما طبع مقال آخر تحت عنوان "بررسي تطبيقي معماي هستي در انديشه ی عمر خيام نیشابوري وإيليا أبو ماضي لبناني" في فصلية اللسان المين الإيرانية لـ "سعيد حسام بور وحسين كياني"، غير أن الدراسة رغم اتصافها بالعمق وجيزة، لا تشمل

قصيدة الطلاس في سطور:

تعدُّ قصيدة الطلاس من أهم قصائد إيليا أبي ماضي والتي تشتمل على ٢٨٤ بيتاً. قرّضها الشاعر على شكل الرباعيّات التي انتظم فيها كثيراً مما خطر بباله من القضايا والأفكار الفلسفية ذات الطابع اللادري. تعود هذه القصيدة إلى الديوان الثالث (الجداول) للشاعر، وتتوزّع على سبعة أقسام كالآتي: المقدمة/ البحر/ في الدير/ بين المقابر/ القصر والكوخ/ الفكر/ صراع وعراك، وكل قسم منها يتكوّن من عدد من المقاطع تدور حول فكرة معينة أو مجموعة من الأفكار تنتهي إلى فكرة عامة وهي عدم اليقين فكرياً وفلسفياً! أما القصيدة بتفاصيلها ورؤاها فتمثل عدداً من الأسئلة الفلسفية حول الوجود والحياة وحقيقتها، وحول مصير البشر ونهايته إلخ، وهي أسئلة أنطولوجية تحير البشر كما حيرته من قبل قرون! رغم أنّ أبا ماضي اشتهر بشاعر التفاؤل، غير أنّ هذا التفاؤل لا يخلو من الحيرة الناجمة عن عدم إمكانية فهم أسرار الكون ورموزه. هناك الكثير من التساؤلات في هذه القصيدة ألفت بظلالها على قلب الشاعر وضميره وأدخلته في وادي الحيرة، ما هو هذا العالم اللامتناهي؟ هل يمكن كشف النقاب عن الرموز الكونية وأسرار العالم، أم أنه لا بد من الرضوخ والاستسلام أمام تلك المجهولات؟ يستفسر الشاعر عقله تلبية لتلك المتطلبات الباطنية ولكنه لا يوصله إلى الإجابة، فاحتار

واقفاً أمام عالم ملئه الغموض والرموز! فالشاعر في القصيدة مقرّب بجهله العمق، خرج إلى حيز الوجود دون أن يعلم مبدأ المجيء ومقصده؟ وطى موطئاً ليس له علم به ولا اختيار فيه، ولكنه لا بد أن يعيش فيه، ليس له معرفة عن تخيره ولا عن تسييره، فيتساءل البحر بكل عظمتة ولكن الإجابة ليست إلا لست أدري! فينصرف إلى المعابد والصوامع ولكنه لا يتزوّد إلا بزاد الحيرة والاستغراب! فيتجه نحو القبور والموتى ويخاطبهم سائلاً عما في الضمير، إلا أن الرد هو كاسابقتها، فيزداد ذهولاً واضطراباً، ويستمر في التساؤل عن مختلف مظاهر الطبيعة ومشاهدها، غير أنّ الكل محكوم بالجهل العميق، ومن ثم لم تنفك أحجية الكون قائمة أمام عينه، فليس له مفرّ منه ولا مهرب! (انظر: ضيف، ١٩٥٩: ١٩١-١٩٤).

سبق أن أسلفنا أن أبا ماضي كان في هذه القصيدة متأثراً من أفكار الخيام الفلسفية تأثراً بارزاً (انظر: المصدر نفسه: ١٨٣-١٨٥). كان تأثير الخيام في أبي ماضي كثيراً إلى درجة أنه في عام ١٩٣٠ كتب مقالاً تحت عنوان " حياة عمر الخيام " تطرق فيه إلى أفكار الخيام الفلسفية ورؤاه (حاطوم، ١٩٩٤: ١٢٧). إلا أنّ الحق - والحق نقول - أنّ آراء الخيام الفلسفية وغوره الفكري أكبر بكثير مما نراه عند أبي ماضي (الجوسي، ٢٠٠٧: ١٧٨). كان عمر الخيام من أحد الفلاسفة الحكماء، رفع منزلة العقل إلى درجة جعله

البشر أمام القضاء والقدر المحتومين وعدم تمكنه من فهم أسرار الكون في الأساس (قنبري، ١٣٨٤ش: ١٢٣)، ويتضح لمستقري رباعيات الخيام أنه كان مؤمناً من كل قلبه بهذه الرؤية، الأمر الذي جرّه إلى واد من الحزن والقلق وزاده تشاؤماً للحياة وللكون. يتسلح الخيام بذهن متسائل لا تقنعه ردود الآخرين، ويبحث عن الحقيقة هو بنفسه، فيقوم بطرح مختلف التساؤلات ليشكك في الإجابات التي لم ولن تزل يجترّها الناس قديماً وحديثاً، فهو يبحث عن المعرفة ويسعى الوصول إليها ولكنه مجهود عقيم لم يأت له إلا بأثار اليأس أمام كون مترام لا يزيده إلا همّاً، ولا يلبسه إلا قنوطاً، فهو خائف من فوات العمر والأوان، وحزين أن لا يدرك أسرار الحياة والموت وهو يترك الدهر!

دل سر حيات اكر كما هي دانست

در مرگ هم اسرار الهی دانست

امروز که با خودی ندانستی هیچ

فردا که ز خود روی چه خواهی دانست؟

(صراف، ١٩٤٩: ١٢٠ - ١٢١). (ترجمة: لوعرف الإنسان سر الحياة ورموزها كما هي، لعرف بعد الموت كذلك أسرار اللاهوت، فأنت اليوم لا تعرف شيئاً بينما تتمتع بنفس وقوة عاليتين، فكيف تعرف شيئاً في الغد وأنت لا تملك شيئاً؟).

لأنحرف عن جادة الصواب لو قلنا أنّ الخيام رغم ما يتمتع به من علم ومعرفة، ولكنه يبحث عنها على

الفيصل في كل ما يجري حوله، فالخيام عرج إلى آفاق لا يعرج إليها إلا أقبلاً من الكبراء، ممن يعانون معاناة الوجود. رغم أنه جعل للعقل مكانة عالية في البحث عن سر الكون، ولكنه يؤمن بأنه لا يصله في نهاية المطاف إلا إلى طريق مسدود، فالخيام يبحث عن الحقيقة ويكثر من الأسئلة التي تفجرت على لسانه وما يجد لها جواباً يشفي غليله عن معرفة أسرار العالم، فمواقفه متصفة بالقلق الدائم والدهشة المستمرة، مما يجعل فلسفته أشد تعقيداً من فلسفة الشك عند أبي ماضي بأضعاف وحتى عند المعري، السبب الذي جعله ليلجأ إلى الخمر حتى تسكن عقله الباحث عن علم الساعة وتخدر حسه المضطرب. فالرباعيات نداء الضمير، ضمير إنسان باحث عن الحقيقة، ضمير كثير التساؤل، طائف في دائرة الشك، هادف إلى معرفة حقيقة الوجود وتفسيره ومعرفة أسرارها، ولكنه وقع في الشك دون اليقين وانتابه صراع داخلي عظيم. وخلال الصفحات المقبلة نتناول تلك التأثيرات التي استشفها أبو ماضي من آراء الخيام في الطلاسم، مقارنة بين آراء الشاعرين فيما يخص بمختلف الموضوعات.

١) الاعتقاد بالمدرسة اللاأدرية:

المدرسة اللاأدرية منتمة إلى مذهب فلسفي قائل بعجز العقل البشري عن فهم المجردات وجوهرها وخواصها، وهي تعتمد في الأساس على استسلام

قد تبلورت تلك الفكرة في قصيدة الطلاسم تبلورًا، حيث إنَّ أبا ماضي يستقصي المجهود في هذا الشعر؛ ليعلن عن عجز الإنسان في كشف الحقائق الكونية؛ لأنَّه يجهل قَدَمَ العالم وحدوثه ولا يحصر هذا الجهل المتجذّر في نوع البشر فحسب، وإنَّما يتعداه إلى جميع الكائنات وكافة مظاهر الطبيعة، حيث إنه يتّجه نحو البر، والبحر، والقبر، والنخ، ولكن الكلّ قليل عن فهم ذلك، لأنَّه لا يسأل أيا منها إلا وهو منغمس في جهل متجذر، فتطفو من ذهنه المتسائل تساؤلات عديدة، تساؤل عن قدم الكون وحدوثه، وعن الإنسان هل يقود نفسه في هذا العالم اللامتناهي المجهول أم أنه مقود بواسطة قدرات مجهولة؟ وعن الأينية والخلقة وعن خالق كل تلك الأسرار، وبذلك أكثر ما يستشف في هذه القصيدة الطويلة رائحة اللاأدرية، والجهل لدى الشاعر وكافة مظاهر الطبيعة.

قد رأيتُ الشهبَ لا تدرى لماذا تشرقُ

ورأيتُ السحبَ لا تدرى لماذا تغدقُ

ورأيتُ الغابَ لا تدرى لماذا تورقُ

فلماذا كلُّها في الجهلِ مثلي... لستُ أدري

(أبو ماضي، ١٩٨٨: ١٧٠). ويقول:

قد سألتُ البحرَ يوماً هل أنا يا بحرُ منكأ

هل صحیحٌ ما رواه بعضهم عني وعنكأ؟

أم ترى ما زعموا زورًا وبهتانًا وإفكأ

صَحِكْتُ أمواجهُ مني وقالت... لستُ أدري

الدوام وباستمرار، وهذا هو السبب أنه يكثر من التساؤل لعله يتمكن من إيجاد الحل، بيد أنه بغية الوصول إلى رد قويم أو إجابة مقنعة قد يتورّط من وراء تلك التساؤلات في دائرة تساؤل آخر مجهول يزيد هماً وغمًا، وهذا في الحقيقة ليس معيبة على الخيام ولا منقصة له بشكل من الأشكال، وإنما هو تدفق للأفكار والرؤى في ذهن ملئه التساؤل والبحث عن الحقيقة.

اسرار ازل رانه تو دانی و نه من

وین خط مقرط نه تو خوانی و نه من

هست از پس پرده گفتگوی من و تو

چون پرده برافتد نه تو مانی و نه من

(ذكاوتی، ١٩٧: ١٣٧٧). (ترجمة: لأنت تقف

على أسرار الأزل ولا أنا، كما لانستطيع أنا ولا أنت من فك هذا اللغز، إن وراء الستار لحديثاً عني وعنك فإذا أزيح الستار فلا أنت تبقى ولا أنا).

فالخيام يقرُّ بتعقيد خط الكون، فلا يعلم هو ولا

المدعي شيئاً من أسراره، ولن تُزال تلك الأستار ولا

تُكشط إلا بعد أن غشينا الموت والعدم وإذ ذاك لا

يجدنا ذاك العرفان. وفي رباعية أخرى يشبه الخيام

مساعي العقل للوصول إلى أسرار المجردات والأمور

الغيبية بحلب الثور، كما أنه لا يترتب على حلب الثور

فائدة لا يترتب على جهود العقل لإيصال الحقائق

ومعرفة أسرار الكون فائدة كذلك.

(ترجمة: كان قبلي وقبلك ليل ونهار، وكان الفلك
يجري إلى غايته، خفف الوطاء على الأرض فقد كان ما
تطأه إنسان عين حسناء).
فالحالات والصور متغيرة عند الخيام وتتفاوت!
ويقول في رباعية أخرى:

چون ابر به نوروز رخ لاله بشست

برخيز و بجام باده کن عهد درست

کاین سبزه که امروز تماشاگه توست

فردا همه از خاک تو خواهد درست

(دشتي، ٢٠٠٠، ١٣٤٨). (ترجمة: إذا غسلت

السحبُ النيروزية طلعةَ الورد برذاذ مطرها، هياً
لنحتسي بنت الحان، لأنَّ هذه النباتات والرياح التي
اتخذتها مشهداً للتنزه، فتنمو غداً من ترابك).

رغم أنَّ الفكرة تقترب إلى فكرة التقمص إلى حدٍّ ما
ولكننا لانستطيع أن ندرج الخيام ذلك الفيلسوف
الكبير في خانة المتقمصين أو القائلين بذلك، فمردُّ تلك
الأشعار - كما أشرنا - الاعتقاد بتحويل المادة من
صورة إلى أخرى. تبلور ذلك المعتقد في قصيدة
الطلاسم بصورة ملحوظة، كأنَّ إيليا أبي ماضي يعتقد
بذاك التحويل الذي يؤمن به الخيام عن سويداء
القلب، وبذلك يعتقد الشاعر أنَّ كيانه متكون من عدة
كيانات:

من شرابي الشهدُ والخمرُ والماءُ الزلال

من طعامي البقلُ والأثمارُ واللحمُ الحلال

فالشهب، والسحب، والغاب، والبحر، كلها خيِّم
الجهل على أعتابها، فالشهاب يشرق ولا يدري
والسحب تغدق عن غير علم، والغاب تورق، والبحر
يمور ويضطرب، ولا يدري لأي سبب؟ فكأنَّ الكل
مضطرب للقيام بالمأمور ولا يدري بالأمر!

(٢) قَدَم العالم وحدوثه:

يرى الخيام كغيره من الفلاسفة القدماء وأستاذه
ابن سينا أنَّ المادة أو الهيولى قديمة، غير أنَّ صورها
المختلفة حادثة، وعبرَّ خلال رباعياته عن هذا المعنى
بأشكال مختلفة، وهذا هو القول الأرجح والظاهر
المستخلص من نص الرباعيات وليس بالقول الجازم
المتيقن، وما يدل على ذلك عدد من رباعياته، حيث
أشار فيها إلى تحويل المادة من حالة إلى أخرى، كتحويل
الوجوه البشرية إلى التراب، والتراب إلى جرة الماء!
فتلك الجرة وذاك النبات ليستا إلا عنصرين من
عناصرنا الوجودية المتبعثرة في بطن الأرض السحيق،
فويحك ثم ويحك أيها المتبختر الجبار أن تركلها أو
تدهسها تحت أقدامك عنوة وتبخترًا!

پیش از من و تو لیل و نهارى بوده است

گردنده فلک برای کارى بوده است

ز نهار قدم بر خاک آهسته نهى

كان مردمک چشم نگارى بودست

(فروغي وآخرون ١٠٤، ١٣٧٣).

سبيل المثال لا الحصر - حيث يشبه الشاعر الكون بالرباط أو أماكن نزول القوافل، فكأن الدنيا ليست إلا رباطاً للاستجمام ونزول الركبان، وهي قديمة أفنت مئات الملوك والسلطين كجمشيد وبهرام، وهي لاتزال قائمة.

اين كهنه رباط را كه عالم نام است

آرامگه ابلق صبح و شام است

بزمیست كه وامانده ی صد جمشید است

قصریست كه تكيه گاه صد بهرام است

(المصدر نفسه: ١٠٣). (ترجمة: تشبه حال الدنيا

رباطاً (مكان نزول القوافل)، وهي مهجع لمئات الملوك

كجمشيد وقصر استند اليه الألو ف من الملوك

كبهرام).

تجلت فكرة قدوم العالم وحدثه في الطلاسم بكل

وضوح، وأصابت الشاعر بالذهول والتحير، فأصبح

يبحث عن الإجابة ولكنه لا يصل إلا إلى أفق من

الجهل المطبق، ليعبر عن قوله في طلاسمه:

أجدید أم قديم أنا في هذا الوجود...؟

(أبو ماضي، ١٩٨٨: ١٤٠) وقوله:

أتراني قبلما أصبحت إنساناً سوياً

كنتُ محوًّا أو محالاً أم تراني كنتُ شيئاً

ألهذا اللغز حلُّ أم سيبقى أبدياً

لستُ أدري ولماذا لستُ أدري ... لستُ أدري

(أبو ماضي، ١٩٨٨: ١٤١).

كم كيانٍ قد تلاشي في كيانٍ واستحال

كم كيانٍ فيه شيءٌ من كيانٍ ... لستُ أدري

(أبو ماضي، ١٩٨٨: ١٧٣).

يبدو أن أبا ماضي يؤمن بأن المادة قديمة ولا

تعرضها شيء من الفناء، غير أن صورها تتغير.

يرى الأستاذ الديناني أن الأدلة التي تدعم حدوث

العالم عند الخيام لا تفوق قدرتها على الأدلة التي تثبت

قدمه على حده تعبيره، فالأمر مرده إلى جدال الطرف

القائل بالحدوث مع الطرف القائل بالقدم لدى

المتكلمين، والخيام يشير إلى هذا الجدل ولا يفصح عن

رأيه بوضوح وجلاء، وإنما يدعو بأن لا يُضَيِّع الوقت

بالجدل الكلامي وإنما يُستعاض عن ذلك بشرب الخمر

وقضاء الأوقات مع المعشوق فرحاً ومرحاً (راجع:

ديناني، ١٣٨٨: ١٩٤-١٩٥).

چون نیست مقام ما در این دهر مقيم

پس بی می و معشوق خطائست عظيم

تا کی ز قديم و محدث اميدم و بيم

چون من رفتم جهان چه محدث چه قديم

(فروغی وآخرون، ١٣٧٣: ١٤٩). (ترجمة: إذا لم

نبق في هذا الدهر لنعيش، فتمضية الأوقات بغير خمر

وحبيبة خطأ عظيم، إلى متى نظل نفكر بالحديث

والقديم؟ وسيان بعدي حادث وقديم).

سبق أن قلنا أن الخيام يؤمن بالقدم وتبديل الصور

من حالة إلى أخرى، فانظر إلى الرباعية الآتية - على

وهناك، إلا أنّ تلك الأفكار عثّشت في قلب الخيام، وترسّخت في ضميره، فهي لاتزال ترافقه حتى انقطاع النفس، ولا تنفك تلازمه حتى تغمده الثرى، وهذا هو السبب أنه يدعو إلى شرب الخمر حتى الثمالة ليبلسم فؤاده الجريح! فالخمر ليست عند الخيام معنية لذاتها ولجوهرها، وإنما هي لها قيمتها لقابليتها من الإبعاد عن تلك الأحزان الوجودية!

٣) استيلاء الموت والدمار على الكائنات

تحاول الكائنات بأجمعها البقاء والمحافظة على استمرار حياتها ولكن محاولتها فاشلة، لأنّ الفناء وُضع كميناً للإيقاع بها. استحوذت تلك الرؤية على فكرة الخيام، فلا ينظر إلى أي صوب إلا وهو يشاهد الأموات والأرواح، ولا يلاحظ إلا أجساداً مبتورة مبعثرة، فهو ينظر إلى القمر المنير فيساوره الفرح ولكنه ما عتمّ أن يتذكّر أن هذا الليل المقمر كان قد أسدل ستار الظلمة على الألوف من قبله، وسوف يسدل ستاره على الألوف والملايين من بعده، يرى الكوز الفخاري والأقداح قد صُنعت ثم انكسرت ووقعت تحت موطئ الواطئين خفيفة، وهي في الواقع تكوّنت من رؤوس ألوف العظاء كـ " كيقباد وكيخسرو" وغيرهم، وها هي اليوم وقعت أسيرة تحت وطأة التراب. فإذا الأمر يؤول إلى هذا المصير المؤلم لم لا يستفيد الإنسان من هذا العمر الوردي ليستمتع بالوجود واللحظات؟

والملاحظ أنّ أبا ماضي لا يعلن في طلاسمة عن رأيه فيها يخصّ بقدم العالم أو حدوثه، ولعله لا يتمكن من ذلك، لأنّه أسير في واد من الجهل واللاأدرية، متورط في ظلمة لا يرى منها مخرجاً، فيسأل عن كونه قديماً أم حادثاً، ولكنه لا يدري ما الإجابة، وأمّا الخيام فهو يدري، فهو عارف بأن أجزاء الجرّة ليست إلا أجزاء من وجوه مبعثرة طالما أكلت وشربت، وعارف أنّ العالم رباط قديم استجم فيه الركبان واستراحوا، ثم غادروه نحو الفناء والزوال والعالم هو العالم دون تبديل ولا تغيير ليهلك المزيد والمزيد، فالخيام لا يقرّ له قرار لا في الأرض ولا في السماء، إلى أين ينظر؟ إلى الحد الكون الممتد المترامي؟ أم إلى الهاجعين في فراش التراب؟ وهو دائم الحزن وكثير التفكير ليصل إلى الإجابة ولكنه جهد عقيم ومسعى باطل، فظلال الخوف والقلق مسيطرة عليه ولا تبعد عنه للحظة من اللحظات، فهو يعاني معاناة وجودية، معاناة لا يعاني منها إلا الكبار الأفاذ من الفلاسفة والمفكرين، وأبو ماضي ليس من جملة هؤلاء، فهو لا يزيد عن شاعر بارع، ومعاناته ليست بمعاناة دائمة في الوجود، وما يعاني منه في طلاسمة بكل ما استولى عليه من هموم وأحزان لا يبلغ مدى ولا نصف ولا ربع ما يعاني منه الخيام، لأنّ تلك الأحزان النابعة من الجهل الإنساني ليست متجذرة في أعماق وجدانه، ولم يتطرق إليها في جملة أشعاره إلا في قصيدة الطلاسم وأبيات ماثوثة هنا

در کارگه کوزه گری رفتم دوش

دیدم دو هزار کوزه گویا و خموش

ناگاه یکی کوزه برآورد خـروش

کو کوزه گر و کوزه خر و کوزه فروش

(فروغی و آخرون، ۱۳۷۳: ۱۴۳).

(ترجمة: كنت بالأمس في مصنع كواز، فرأيتها وهي

بين الناطقة والصامتة، فإذا بكوز منها قال بلسان حاله

أين صانع الكوز ومشتريه وبائعته؟).

فُضِّل الإنسان على غيره من الكائنات الحية، لأنه

يحظى بقدرة التفكير، يفكر في الكواكب وحركاتها،

يحدّد الفصول الأربعة وأيام السنوات، ويتدخل في

شؤون الطبيعة تدخلاً ملحوظاً، ولكنه رغم كل ذلك

محكوم بالموت كما الكائنات الحية الأخرى بأكملها،

فليس بين هذا الكائن التفكيرى وبين جميع الكائنات

والدواب فارق في هذا الأصل. ومن دون مزية أن

التفكير في الخلق هو الذي جرّ الخيام إلى ذلك الوادي

المظلم، حيث يجد فكره قاصراً عن إيجاد الحل وعن

معرفة مبدأ الخلق ومنتهاه، فدهش وتخيّر كيف يمكن

أن يكون فعل الخالق في منتهى الحكمة وهو ينتقُض على

خلقه من جديد ويجوّله إلى العدم كما كان!

دارنده چو ترکیب طبایع آراست

باز از چه سبب فکندش اندر کم وکاست

گر نیک آمد شکستن از بهر چه بود

ور نیک نیامد این صور عیب کراست

(فروغی و آخرون، ۱۳۸۳: ۱۰۸).

(ترجمة: مالك الطبايع عندما خلقها وسوّى خلقها،

لماذا يجعلها ناقصة لا تفي بالمراد؟ وإن كانت قد جاءت

جيدة فلماذا حطّمها، وإن جاءت رديئة فإلي من يعود

عيبها؟).

فالخيام لا يعتقد بالفناء والزوال الأبديين، وإنما

يعتقد كغيره من أتباع فلسفة الإشراق بأن الموجود إذا

وُجِد لا يعدم بعد، بل يموت أو يُسلب منه الحياة

ليظهر في شكل آخر، فالذي أدهش الخيام هو هذا

التبديل، فإذا كان الخلق الأول بديعاً فما معنى التبديل

والتغيير إذن؟ وإذا كان سيئاً فمن المسؤول عن هذه

الصُور المعيبة؟

لقد أَلقت تلك الرؤى بظلالها على قصيدة

الطلاسم، ها هو صاحبها يرى ظلّ الفناء مستحوذاً

على كافة الموجودات والكائنات، ولا مفرّ لها منه بأي

شكل من الأشكال.

قد رأيتُ النملَ يسعى مثلما أسعى لرزقي

وله في العيش أوطارٌ وحقٌّ مثل حقي

قد تساوى صمته في نظر الدهر ونظقي

فكلانا صائرٌ يوماً إلى ما ... لستُ أدري

(أبو ماضي، ۱۹۸۸: ۱۷۴).

فإيليا أبو ماضي في تعبيره عن الفناء يصور نملاً

يسعى لرزقه ويكافح الحياة للبقاء، ولكنه مهما كافح

وجاهد لا ينال منه سوى اليسير، وفي الحقيقة أن سعيه

(أبو ماضي، ١٩٨٨: ١٥٩). ويقول:
ولقد أبصرتُ قصرًا شاهقًا عالي القباب
قلتُ ما شَادك مَنْ شَادك إلا للخراب (المصدر نفسه:
١٥٨).

٤) لغز الكون وعجز العقل في تفسيره

كانت ماهية الكون من أهم وأكثر تساؤلات
الفلاسفة والمفكرين إثارة للجدل عبر التاريخ، والخيام
كغيره من الفلاسفة لا يقبل الكلام دون دليل ولا
برهان؛ لأنَّ فكره الفلسفي الرياضي لا يرضى
بالإجابات البسيطة والإقناعات العامة، فهو كثير
الاستدلال والتفكير، يريد أن يروي غليل صدر
مشتعل لا يترَوِّي إلا بهاء اليقين، فينظر إلى الصحراء
المترامي على بعد النظر وتوًّا يخطر بباله أين هناك؟ ومن
هؤلاء؟ لماذا وطئ الواطئون هناك وعن ماذا يبحثون؟
أليست كل محاولة محكومة بالفناء! أليس كل مسعى
يُصبَّب في صالح الزوال والعدم! إن تلك الأفكار هي
التي رزحت كاهل الخيام وأثقلته ثقلاً لا يطاقه فيخرج
من فمه ما يحير أصحاب الحجى!

اين بحر وجود آمله بيرون ز نهفت

كس نيست كه اين گوهر تحقيق بسفت

هر كس سخني از سر سودا گفتند

ز آن روی كه هست كس نمى داند گفت

(فروغي وآخرون، ١٣٧٣: ١٠٢). (ترجمة: فتق

بحر الوجود من خفاء مستور لا يعلم به أحد، وليس

وراء الرزق ولقمة العيش هو الذي يوقعه في شرك
الموت ومخالبه! فالذي أدهش الشاعر أنه هل يمكن أن
يساوي الإنسان هذا الصنع الإلهي الكبير بقدراته
الفكرية والروحية العظيمة نملاً إذا تعلق الأمر
بالموت؟ كيف يمكن أن لا يكون هناك فرق بينه وبين
بقية الكائنات؟ مهما يفكر فالمصير هو هو ومهما تعقل
فالغاية لا تتغير! قد وظف الخيام تعبير الذبابة بياناً لهذا
المفهوم، فهو لا يرى فارقاً كبيراً بين الإنسان والذبابة
إذا تعلق الأمر بالموت:

آمد و شدن تو اندر اين عالم چيست؟

آمد مگسى پديد و ناپيدا شد

(دشتي، ١٣٤٨: ٢٧٣). (ما معنى الذهاب إلى

هذه الدنيا والمجيء عنها، ليس ذلك إلا ذهاب ذبابة
وإختفائها).

والملاحظ أن أبا ماضي يتعدى الهدم والفناء على
جميع الكائنات الحيّة وغير الحيّة، فهو يرى مصير
القصور الخالدات كمصير بانيتها صوب الهدم، فدائرة
الفناء لم تُضَيِّق في الطلاس على الإنس فحسب، وإنما
اتسعت على جميع الكائنات وذوات الأرواح وعلى
كافة مظاهر الطبيعة.

كم قصورِ خالها البانى ستبقى وتدوم

ثابِتات كالرواسى خالِداتٍ كالنجوم

سحبِ الدهرُ عليها ذيلُه فهى رسوم

ما لنا نبى وما نبى لهدمٍ؟ ... لستُ أدري

وجعل منه وجوداً كأنه بين الأرض والسماء! وبناءً على هذا يعتقد أن كافة المساعي لفهم العالم محكومة بالفشل والعقل قاصر عن الوصول إلى كنه الحقائق، فالخيام رغم اعتقاده الجازم بقدرة العقل في فهم الأمور، إلا أنه يعتقد بعجزه في معظم المسائل الكونية والماورائيات كالموت والحياة....

تأثر أبو ماضي من تلك الأفكار في طلاسمة، فجرته إلى وادٍ من التحير واللاأدرية البحتة! فهو متخبط في عالم من المجهولات الكونية، فلا يدري من أين جاء، وإلى أين ذاهب في نهاية المطاف؟ فهو يرى أن مجيئه إلى هذا العالم لغز، وذهابه لغز، وكل ما يمتلكه لغز لا ينحل، فلا يدري أين هو من هذا العالم، وأين العلم من الجهل المتأصل في الكون؟ فالعاقل ليس إلا المتفوّه باللاأدرية أمام تلك المجهولات! جئتُ لا أعلم من أين ولكني أتيتُ (أبو ماضي، ١٩٨٨: ١٣٩).

ويقول في موضعٍ آخر:

إنني جئتُ وأمضي وأنا لا أعلمُ

أنا لغزٌ وذهابى كمجيئي طلسمُ

والذي أوجد هذا اللغز لغز مبهم

لا تجادل ذوالحجى من قال إنى... لستُ أدري

(المصدر نفسه: ١٧٧).

والملاحظ أن تلك الأفكار رغم أنها مخيِّمة على كافة مواضع الطلاسمة ولكنها في الحقيقة لم تكن متعشّشة في

من يتمكن من تبين هذا السر العظيم، كل إمري قال وهماً عن حقيقته غير أن الحق أنه لم يتفوّه بحقيقته أحد من العالمين).

ولا يستبعد أنه كان قد طعن الخيام في الأشاعرة والمعتزلة والمشرعين والفلاسفة الدهريين، حيث كان يقول كل منهم ما يزعمه عن الكون وأسرار الخلقة وما إلى ذلك من أمور، بيد أن تلك الأقوال لا تزيد عن زعم زعموه، والزعم لا يغني عن الحق شيئاً.

در دايره اى كامدن ورفتن ماست

اورانه بدايت نه نهايت پيدااست

كس مى نزنند دى در اين معنى راست

كاین آمدن از كجا و رفتن به كجاست

(ذكاوتى، ١٣٦٩: ١٩٤). (تشبه حالنا في ذهابنا

إلى هذه الدنيا ومجيئنا عنها دائرة لا تتضح نهايتها ولا بدايتها، ولم أجد من يقول الحق من أين جئنا وإلى أين نذهب؟).

ومن غير شك أن مكانة الخيام الحقيقية تتجلى في هذا التحير وذاك الاستغراب الوجودي والفكري، وتلك الأفكار التي تسبح على نقيض من التيار السائد.

يقول في إحدى رباعياته أن الإنسان سواءً كان ناشئاً أم ناضجاً، أو عالماً أم جاهلاً، عاجزٌ عن حل أسرار الكون (شه وري، ١٣٨٤: ١٢١، دشتي ١٣٤٨:

٣٢١). فلا يمكن أن يصل إلى مرتبة اليقين مهما حاول؛ لأن التحير هو سيد الموقف والمسيطر عليه

واللاعب هو الدهر وليس الله جلّ جلاله، لأنّه يعجز عن حلّ هذا اللغز كيف يمكن أن يكون اللاعب هو الله وأعماله تتسم بالحكمة والعلم؟ ويقول في رباعية أخرى:

بر من قلم قضا چوبى من رانند

پس نيك و بدش زمن چرامى دانند

دى بى من و امروز چو دى بى من و تو

فردا به چه حجتى به داور خوانند

(فروغى وآخرون، ١٣٧٣: ١٢٦). (فإذا حكم

القضاء عليّ دون علم مني ولا معرفة، فلماذا ينسبون إلى جيّد القضاء أو سيئه؟ وإذا حُوكم عليّ بالأمس واليوم كالأمس يحكم علينا دون علم منّا، فلماذا يدعوننا أن نحضر عند المليك المقدر في يوم القيامة ليجازينا أو يعاقبنا؟).

فالإنسان ليس مختاراً عند الخيام، ولذلك لا حاجة فعلاً بالجزاء ولا العقاب، لأنّه يتساءل كيف يمكن أن يعاقب الإنسان أو يجازى ولم يكن له اختيار ولا إرادة في كثيرٍ من الشؤون، هل يتفق ذلك مع العدل الإلهي؟ ولعل الخيام لا يريد بيان تلك الرباعيات أن يطعن في حقيقة الجنة والنار أو في شيء من المعتقدات الدينية، وإنما يريد أن يطعن بذلك في ما ذهب إليه بعض الأشاعرة والمرجئة والمتفلسفين من معتقد، وذلك لأنّ معظم من اجتمع حول الشاعر كان من الأشاعرة، وكأنه يريد القول أنه لا يجوز لكم أن تعتبروا من لم

صدر الشاعر، وكأنها في معظمها لمحات تلمح أمام عينه أو تتمظهر للحظات وتختفي أكثر، فأبو ماضي لا يعاني مما يعاني منه الخيام، ولعلّه متلبّس بلباس الفلسفة في هذه القصيدة دون أخرى، فالحزن الوجودي والاستغراب الكوني لا يلازمان الشاعر ملازمة تامة خلافاً للخيام الذي اعترف عقله بالعجز والتحيّر، فالخيام كثير الحزن دائم التساؤل في كافة رباعياته، الأمر الذي قد غاب في معظم أشعار أبي ماضي وقصائده، فهذا الغياب ليس اعتباطياً وإنما هو ينجم عن غياب الحزن الوجودي في الحقيقة!

٥) الجبر والاختيار

يرى الخيام أنّ الإنسان عديم الاختيار في هذه الدنيا ولو كان متمتعاً بشيءٍ من الاختيار ليس ذلك إلا في إطار ضيق، وهذا لا يشتمل على الإنسان فحسب، وإنما على جميع الكائنات من ذوات الأرواح وغيرها، على غرار الألوفا والملايين من الكائنات، حيث تتّجه وتسير دون إرادة منها ولا اختيار، فالكل خاضع لقانون الجبر ولا مفرّ له منه أبداً. فالخيام لا يدري من هو الفاعل المحرّك، قد يعبر عنه بالدهر الغشوم وبالدهر اللعوب وما إلى ذلك من تعابير.

ما لعبتكنيم وفلك لعبت باز(دشتي ١٣٤٨:

١٨١). (ترجمة: غدونا لذي الأفلاك ألعاب لاعب).

يعتقد الخيام أنّ أحوال الكائنات من الإنسان إلى الحيوان إلى النبات تشبه أحوال أحجار الشطرنج،

الوصول إلى الإجابة يخفق مسعاه، وفي مقطع آخر من القصيدة يصرح أنه ليس حراً، بل هو أسير مكبل لا يملك أمره ثم إنه يتعدى هذا الأسر على كافة الكائنات كالبحر، والغيث، والزهرة، والأرض الخ. والملاحظ أنّ أبا ماضي في المقطع السالف يتساءل أنه لا يدري هل هو حر طليق أم أسير مقود؟ ويتمنى أن يدري الإجابة، في حين يجيب في المقطع التالي عن هذا السؤال بأنه أسير كأسر الكائنات بأجمعها، كأسر البحر الجبار، والغيث الهاطل، والزهور العطرة، والأرض الممتدة.

أنت يا بحر آه ما أعظم أسرك
أنت مثلي أيها الجبار لا تملك أمرك
أشبهت حالك حالي وحكي عذري عذرك
فمتي أنجو من الأسر وتنجو... لست أدري!

(أبو ماضي، ١٩٨٨: ١٤٣).

ويقول في موضع آخر:

إنّ هذا الغيث يهيم حين يهيم مكرها
وزهور الروض تفسى مجبرات عطرها
لا تطيق الأرض تخفي شوكتها أو زهرها

لا تسل أيها أعشى وأبهي؟ لست أدري

(المصدر نفسه: ١٦٨-١٦٩).

يتضح من الأبيات أنّ الشاعر يوسّع دائرة الإجماع سعة مفرطة، إلى النباتات، والزهور، والأرض، والأشجار، وكافة مظاهر الطبيعة، غير أنّ الكل يحاول الإيصال إلى هدف محدّد من قبل، فالغيث ليس له إلا

يكن على معتقدكم أو منهجكم أو من يشرب الخمر، كافرًا خارجًا عن الملة، لأنه مجبرٌ على ذلك وفاقدا الاختيار في فعله!

من مى خورم و هر كه چو من اهل بود

مى خوردم من به نزد او سهل بود

مى خوردم من حق ز ازل مى دانست

گر مى نخورم علم خدا جهل بود

(يكانى، ١٣٤٢: ١٨٦ - ١٨٥، دشتى ١٣٤٨:

٢٢٥).

(ترجمة: أنا أشرب الخمر ومن كان مثلي أهلاً لشربها لا يعتبر شربي الخمر معصيةً ولا إثماً مني، وذلك لأنّ الله يعلم منذ الأزل أني سوف أشربها، فإن لم أشربها كان علمه جهلاً).

وأما في قصيدة الطلاسم فقد تحير الشاعر واستغرب هل هو حرٌّ طليق، أم أسيرٌ مقود؟ أيقوده يدُّ التقدير أينما شاءت أم أنه هو الذي يقود نفسه في الحياة؟ فالشاعر وقف مذهولاً كيف يمكن إيجاد الحل؟

هل أنا حرٌّ طليق أم أسير في قيود

هل أنا قائدٌ نفسي في حياتي أم مقود

أتمنى أنني أدري ولكن... لست أدري

(أبو ماضي، ١٩٨٨: ١٤٠).

يتمنى الشاعر أن يدري الإجابة ولكنه لا يدري، فيتساءل عن كونه حراً أم أسيراً، ولكنه كلما يسعى

الإمطار، والنبات ليس له إلا الإنبات، والأرض لا تستطيع إخفاء شوكتها أو نباتها أو زهرها، فالكل مضطر ليسير نحو غايتها المقدّرة، ولا يتيسر له التخطّي عنها ولا التعدي منها أبداً!

(٦) الدين والمعاد

من أهم ما يستخلص لمستقري تاريخ الأدب في حياة شاعر وفيلسوف كالخيام، احترامه لآراء الآخرين ومعتقداتهم، وأطرى عليه المورخون والنقاد في هذا المجال. يعرفه الشهرزوري بتالي ابن سينا، والزمخشري بحكيم العالم والفيلسوف الكبير (يكاني، ١٣٤٢: ٢٨٢ - ٢٨٣). وفيما يخص بمسألة المعاد وإثباتها أو نفيها رغم أن الكاتب العراقي أحمد حامد صراف يرى أن الخيام ينكر البعث والنشور كلياً (صراف، ١٩٤٩: ١١١ - ١١٢)، إلا أننا رغم تفحصنا المتعمّق خلال رباعيات الشاعر لم نحصل على رباعية بوجه أو بأخر يدّعي فيها الشاعر إنكار القيامة أو النشور بصورة مباشرة، بل يعتقد بضرورة تلك المفاهيم وكل المبادئ التي لها يد في انتظام المجتمع وسلامة أمره ولها تأثير في تهذيب النفس الإنساني وكبح جماحه. ولكننا لاننكر كذلك بعض رباعياته التي تفوح منها رائحة الشك والامتراء فيما يخص بأمر القيامة والمعاد الجسماني، غير أنها لا يُستقى منها إنكار صريح ليوم القيامة أو أمر النشور، ولو تنازلنا عن هذا القول وقلنا إن الخيام ينكر القيامة لوجب علينا القول

إنه ينكرها في تغطية من القول وفي لفّ من الكلام لكي لا يمس بمشاعر المسلمين (المصدر السابق: ٢٨٣).
 گویند گسان بهشت با حور خوش است
 من می گویم که آب انگور خوش است
 این نقد بگیر و دست از آن نسیه بدار

كأواز دهل شنیدن از دور خوش است

(فروغی وآخرون، ١٣٧٣: ١١٤).

(يقولون إنّ الجنة والحور طيبان، وأنا أقول عصير العنب هو الطيب، خذ هذا النقد وذر ذلك الوعد، فإن صوت الطبول في البعد أعذب).

والحقيقة أنّ الرباعيات التي يدل فحواها على شيء من إنكار المعاد، ليست إلا تشكيكاً في التصورات العامية البسيطة حول هذا الأمر، لأنّ حكيماً كالخيام لا يستطيع قبول أفكار وراثية تناقلها عوام الناس والسوقة، ثم إن الخيام لعلّه يتغي بتلك الرباعيات إفحام المتكلمين القائلين بالمعاد الجسماني وهو بذلك يريد أن ينبههم إلى صعوبة هذا الأمر. وأما أبو ماضي عندما يتناول هذا الموضوع خلال طلاسمة فيتناوله بمزيد من العنف والحدة قياساً بالرباعيات، وتشتعل جسارته بهذا الصدد، فهو على سبيل المثال لا الحصر حينما يتطرق إلى الأماكن المقدسة، ويتحدّث عن الصوامع والأديرة يتّصف أصحابها بالتخشيبة والتزمتية ويصفهم بجهلاء نثناء العقول والأفكار، يكبلون الورود وهي استعارة عن الشباب والشابات

أدري! وفي البيت التالي كأن الشاعر يريد نفي المعاد وإنكاره، قائلًا: لو كان للمعاد حقيقة لماذا لا تدوم حياتنا دائمًا ولا يتيسر لنا أن نستمتع على وجه الأرض بهذه الصحة العالية بدلًا من الحياة في عالم آخر؟ فإن كان بعد رقاد الموت الطويل صحوًّا أطول فلماذا لا يبقى هذا الصحو الحالي الذي نتمتع به ولا يدوم؟ وإذا كان الموت يمثل هجوعًا حقًا فلماذا نعشق النوم ونرنو إليه، في حين ننأى بأنفسنا عن الموت؟

إن يك الموت رقادا بعده صحوًّا طويل فلماذا ليس يبقى صحونا هذا الجميل (المصدر نفسه: ١٥٥).

(٧) مدح الخمر

من أبرز ميزات رباعيات الخيام مدحه للخمر، ولكنه يجب أن لا يعزب عن البال أن الخمر في تلك الرباعيات وعند الخيام بالذات ليست إلا رمزًا للتمتع وشعاعًا للاستمتاع بالحياة وعدم فوات الفرصة والأوان (انظر: دشتي، ١٣٤٨: ٢١٥ - ٢٣٢)، ومن ثم فإن الخمر ليست في رباعياته موضوعًا مستقلاً على حدة، وإنما هي رمز للتخلص من المآزق الفكرية والهموم والأحزان!

وقت سحر است خيز اي مايه ناز
نرمك نرمك باده و چنگ نواز
كانها كه بجايند نپايند دراز
و آنها كه شدند كس نمى آيد باز

ويغسلون أدمغتهم بأفكارهم القشرية.

إننى أبصرتُ فى الدير وروداً فى سياج
قنعتُ بعد الندى الطاهر بالماءِ الأجاج
(أبو ماضي، ١٩٨٨: ١٥٠).

وفي عدد من أبياته يزداد الشاعر صراحة وصرامة في الكلام، حيث يعتبر الدير مكانًا لتكديس الهموم والأحزان وليس لإفراغها ولذلك يخاطب أتباع تلك الأماكن:

أيها الهاربُ إنَّ العارَ فى هذا الفرار
لا صلاح فى الذى تصنعُ حتى للقفار
أنت جانٍ أىَّ جانٍ قاتل فى غير ثار
أفرضى الله عن هذا ويعفو؟... لست أدري
(أبو ماضي، ١٩٨٨: ١٥٢).

وفي الأبيات التالية يسأل الشاعر عمًا اختلجه من شك وريب في أمر القيامة والبعث وراء القبور، هل هناك حياة تنتظرنا بعد هذا الموت الطويل، وهل هناك نشور بعد هذا الرقاد الذي استغرق لهذه المدة الطويلة؟ أورا القبر بعد الموت بعثٌ ونشور

فحياة فـخـلـودٌ أم فناء فدثور؟
(المصدر نفسه: ١٥٦).

وفي أبيات أخرى يتساءل الشاعر لو أننا افترضنا صحة بعث الأموات ونشورهم، كيف هم يبعثون؟ هل يبعثون وهم أطفال، أم يبعثون في ثياب الكهولة والشيخوخة؟ والإجابة كسابقاتها ليست إلا لستُ

(فروغى وآخرون، ١٣٧٣: ١٤٢). (ترجمة: قم واستيقظ يا صاحب الدلال، وغنّ لنا واشربنا الخمر العتيقة، لأنّ من تراهم لن يلبثون مديداً ولن يعود من الماضين أحد).

فالخمر كما قلنا ليست مستقلة متفردة في تلك الرباعيات وإنما هي عند الخيام - على ما ذهب إليه فرنان هانري - بلسمة وتسكين لآلام متتابعة ولفشل فكري ذريع في البحث عن أسرار العالم وفهم رموزها، وكأنه بذلك يريد أن يسدل ستاراً من النسيان على حياة الصحوة المؤلمة لكي تتنفس صعداً ولو للحظات خاطفة (يكاني، ١٣٤٣: ١٥٠). فالخيام تعب من النظر في صحراء الحياة المجهولة وسّم، ولكنه حي فعلاً، ويتيسر له أن يستنشق الهواء الطلق والنسيم العليل في الصباح، فيتمظهر في لباس النّصاح والوعاظ، داعياً لاغتنام الفرص وذلك عبر شرب الخمر التي تذيب الهموم والأحزان:

اي دل توبه اسرار معما نرسى

در نكته زيركان دانانرسى

اينجا ز مى لعل بهشتى مى ساز

كانجا كه بهشت است رسى يا نرسى

(فروغى وآخرون، ١٣٧٣: ١٦٢). (ترجمة: أيها

القلب إعلم أنك لن تصل إلى أسرار الكون، ولا تصل مرتبة الأذكياء الفطناء، اجعل لنفسك في هذه الدنيا جنة من الخمر؛ لأنك لا تدري في الحقيقة هل تنال في يوم القيامة نعيم الجنة أم لا؟).

يعترف الخيام بضعفه وبضعف جميع أبناء البشر في الوصول إلى أسرار الكون، ثم أنه يصرّح بأنه لا يمكن البلوغ إلى ما بلغه الفطناء الأكياس أبداً، ومن ثمّ ليس عليه هو وأمثاله إلا الاستمتاع بالحياة والأوقات وعدم فواتها، وأن يصنعوا في هذه الدنيا العاجلة جنة لثلا يعضوا بنان الندم إن وصلوا إلى الجنة في يوم القيامة أو لم يصلوا! فالخيام يعرّض في الرباعية بأن أذكياء الرجال حاروا ودهشوا أمام هذا اللغز الكبير فناهيك عنه وعن أمثاله، فلا يمكن أن يجدوا الحل أبداً ولذلك يدعو في البيت الثاني إلى شرب الخمر حتى الثمالة. ولعل المراد من البيت الأول أنّ الأكياس تحصلوا على نتيجة كبيرة وهي أنّ الأفضل في هذه الدنيا أن يشرب الإنسان الخمر لكي يرتاح من الهموم والأحزان كلها ويصنع من دنياه جنة! مهما يكن من أمر أن الخمر عند الخيام لو اعتبرناها خمراً مادية أو معنوية فهي ليست إلا رمزاً للاستمتاع وتنبهها لعدم فوات الأوان. ونعتقد أنه على جانب من الاستبعاد أن نفترض أن الخيام هذا الفيلسوف وهذا الداعي إلى التعقل والتفكير في كل الأمور، أن يدعو إلى شرب الخمر الدؤوب، كيف يمكن أن يكون هناك دعوة إلى التعقل والتفكير بينما هو يدعو صباح مساء إلى شرب الخمر حتى النخاع؟ هذا هو الذي دفعنا أن نحمل الخمر في الرباعيات على معناها المعنوي المتجسد لدى الكثيرين من كبار الشعراء كمولوي والحافظ الشيرازي والسعدي

الهموم، ولعل مردّ ذلك أن فكرة الفناء والعجز الإنساني عن إيجاد الحل تعششت في ضمير الخيام وأما إيليا أبو ماضي فلا، حيث إنّ تلك الأفكار لا ترافق الشاعر في كثير من مواضعه الشعرية سوى هذه القصيدة وأبيات مبثوثة هنا وهناك.

النتيجة

نظرًا لما تطرقنا إليه خلال الصفحات الماضية عن قصيدة الطلاس لإيليا أبو ماضي، أنّ الشاعر تأثر من أفكار الخيام ورؤاه الفلسفية إلى درجة ملحوظة، حيث إنه جسّد أفكار الخيام في طلاسمه تجسيدًا، غير أنّ الملاحظ أنّ أبا ماضي في تلك القصيدة لم يبلغ مدى ولا نصف ما بلغه الخيام من علو الأفكار والتحيّر والدهشة، لأنّ معاناة الخيام معاناة وجودي دائم واستغراب كوني لا يفارقه لحظة من اللحظات إلا إذا لجأ إلى الخمر، وأما معاناة أبي ماضي فليست إلا خطفات عابرة تظهر وتختفي بسرعة، إذ إنه يكتفي في كثير من المواضع بطرح التساؤل دون الإجابة ويمرّ على الموضوع مرور الكرام وكأنّ تلك التساؤلات لا تنبثق عن تحديات وجودية لدى الشاعر، ومرد ذلك أنّ إيليا أبو ماضي لم يكن شاعرًا متشائمًا حزينًا في معظم شعره يوماً ما، بل هو شاعر التفاؤل، وأما فيما يتعلق بالخيام فلا، لأنّ مفهوم الفناء وعجز الإنسان عن حل أحجية الكون متمظهر في مواضع كثيرة من رباعياته،

وغيرهم. اجتاحت تلك الأفكار الحدود الفكرية لإيليا أبي ماضي في طلاسمه، حيث إنه يضع أمامه الكثير من التساؤلات المجهولة التي أدهشته، فيتمسك بالخمر والشراب ليزيل الهموم والأحزان، وذلك لأن الخمر تنور عينه وتدقق شعوره وهي كأنها دم يتسرّب في كافة أعضاء بدنه فرحاً ومرحاً!

هي في راسي فكرة وهي في عيني نور

وهي في صدري آمال وفي قلبي شعور

وهي في جسمي دم يسرب فيه ويمور

إنما من قبل هذا كيف كانت ... لست أدري

(أبو ماضي، ١٩٨٨: ١٧٦).

يرى أبو ماضي أنّ الخمر تكوّن لديه الفكر والتعقل، وتزيد عينه قوة وضياءً وتملأ صدره بالآمال والأحلام الطيبة وتنشط الشعور والإحساس في قلبه وتحرك جسمه وكأنها دم يتسرّب في كافة أعضاء بدنه، فيا ترى كيف يمكن أن تسهم الخمر في تزايد الفكر والمعرفة والتعقل؟ أما تعتقد أن هذه الخمر ليست هي بذاتها المادية القذرة وإنما هي خمر للمعرفة والتعقل في الكون وأسراره؟ أليست هذه الخمر هي خمر العلم والتدبر؟

والملاحظ أنّ أبا ماضي لا يدعو إلى شرب الخمر، بل يكتفي بمدحها وكونها مكوّنة للفكر والتعقل، وأما الخيام فلا، فهو يدعو إلى شربها حتى الثمالة في معظم رباعياته وهي كما قلنا رمز للاستمتاع والتخلص عن

الجزائري، محمد الجواد، ١٩٧٠، حل الطلاس، الطبعة الثالثة، بيروت.

الجويسى، سلمى الخضراء، ٢٠٠٧، الاتجاهات والحركات فى الشعر العربى المعاصر، الطبعة الثانية، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية.

حاطوم، عفيف نايف، ١٩٩٤، إيلىاء أبو ماضي، حياته، شعره ونثره، الطبعة الثانية، بيروت: دار حاطوم.

دشتى علي، دمي با خيام، ١٣٤٨، الطبعة الثانية، طهران، مؤسسة أمير كبير للنشر والتوزيع.

_____، ١٣٧٧، دمي با خيام، طهران، مؤسسة منشورات أساطير، الطبعة الثانية.

ديمتري، سليم جورج، إيليا أبو ماضي داراسات عنه وأشعاره المجهولة، مصر، دار المعارف، مكتبة الدراسات الأدبية، رقم ٧٠.

دينانى، إبراهيم، ١٣٨٨، هستي و مستي، طهران، اطلاعات، الطبعة الثالثة.

ذكاوتى، قراگزلو عليرضا، ١٣٦٩، حكيم سخن آفرين، تهران، نشر دانش.

ذكاوتى، قراگزلو، ١٣٧٧، عمر خيام، تهران، طرح نو.

رضا، فضل الله، ١٣٧٩، نگاهى به عمر خيام، الطبعة الأولى، طهران، منشورات كوير.

حيث يعاني من دهشة واستغراب وجوديين وهو خائف مستجير ولا مجير؛ لأنه لا يرى في الدنيا بكل سعتها إلا أمواتاً مبعثرة ووجوها مغبرة في بطن الأرض، فعمن يسأل ليرتاح ويروي الغليل؟ فلا تقنعه إجابات المتفلسفين والأشاعرة، وهو لا يقبل التقليد البحث، ولا يعترف بالمعتقد الذي لم يكن مترسحاً بالتفكير والتعقل، فيبحث عن الإجابة بعقله ولكنه كلما يطرق بابه لا يفتح له، ومن ثم لا يبقى عنده إلا خيار شرب الخمر.

المصادر والمراجع

أبو ماضي، إيليا، ١٩٨٨، من أعمال الشاعر إيليا أبو ماضي (الجداول - الخمائل - تبرو تراب)، بيروت - لبنان، دار الكاتب وكتاب.

أحمد الجزائري، محمد الجواد آل شيخ، ١٩٥٧، حل الطلاس، الطبعة الثانية، النجف.

أمين رضوي، مهدي، ١٣٨٧، صهباي خرد، شرح أحوال وآثار حكيم عمر خيام، الطبعة الثانية، ترجمة مجدالدين كيواني، طهران، منشورات سخن.

برهومي خليل، ١٩٩٣، إيليا أبو ماضي شاعر السؤال والجمال، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية.

- شه، وری أحمد، ۱۳۸۴، جهان بینی حکیم عمر خیام نیشابوری، الطبعة الأولى، طهران، منشورات همراه.
- شیروانی، مهاجر، ۱۳۷۰، حسن شایکاد، نگاهي به خیام همراه با رباعیات، منشورات پویش، الطبعة الأولى.
- صافی النجفی، أحمد، ۱۹۹۸، رباعیات عمر الخیام، الطبعة الخامسة، دمشق: دار طلال.
- صراف، أحمد حامد، ۱۹۴۹، عمر الخیام، الطبعة الثانية، بغداد، مطبعة الشعب (دار الأخبار).
- ضیف، شوقي، ۱۹۵۹، دراسات فی شعر العربی المعاصر، الطبعة الثانية، مصر، دار المعارف، مكتبة الدراسات الأدبية.
- عباس، إحسان ونجم، یوسف محمد، ۱۹۸۲، الشعر العربی فی المهجر: أمريكا اللاتينية، بیروت، دار صادر.
- الفاخوري، حنا، ۲۰۰۳، الجامع فی الأدب العربی الحديث، الطبعة الثامنة، منشورات ذوي القربى.
- فرزانه، محسن، ۱۳۵۳، خیام شناخت، الطبعة الأولى، طهران.
- فروغی، محمد علي وغني قاسم، ۱۳۷۳، رباعیات خیام با تصحیح، مقدمه وحواشي بعناية بهاء الدین خرمشاهی مع الترجمة الإنكليزية، طهران، منشورات ناهید.
- قنبري، محمد رضا، ۱۳۸۴، خیام نامه، روزگار فلسفه و شعر خیام، الطبعة الثانية، طهران، منشورات زوار.
- کریستین سن، آرتور، ۱۳۷۴، بررسي انتقادي رباعیات خیام، الطبعة الرابعة، ترجمة فريدون بدره اي، طهران، منشورات توس.
- المعوش، سالم، ۱۹۹۷، إيليا أبو ماضي بين الشرق والغرب فى رحلة التشرّد والفلسفة والشاعرية، الطبعة الأولى، بیروت، مؤسسة بحسون للنشر والتوزيع.
- یکانی، إسماعيل، ۱۳۴۲، نادره أيام حکیم عمر خیام و رباعیات، طهران، سلسلة منشورات انجمن آثار ملي.
- عنوان مقالة: بازتاب اندیشه ی خیام بر قصیده ی طلاسم از ایلیا ابوماضی چکیده:
- قصیده ی طلاسم ایلیا ابوماضی (۱۸۸۹-۱۹۵۷) به عنوان یکی از مشهورترین قصائد این شاعر دریچه ای است به خلجانهای روحی و اندیشه های درونی شاعر، که در نوع خود و در مقایسه با دیگر اشعار وی کم نظیر است. هر چند قصیده وحدت یا انسجام موضوعی ندارد اما شاعر با بهره گیری از کلماتی سلیس و پرهیز از تکلف و تصنع توانسته است یکی از زیباترین

قصاید خود را به رشته ی تحریر درآورد. ابوماضی در این قصیده از افکار و آراء شاعر، فیلسوف و ریاضی دان برجسته ایرانی عمر خیام تاثیر پذیرفته است. نویسنده گان این جستار با استفاده از روش توصیفی - تحلیلی این مهم را به اثبات رسانده اند که قصیده ی

طلاسم ایلیا ابوماضی آینه ای تمام نما از افکار و آراء عمر خیام است که شاعر با بهترین نحو و زیباترین اسلوب این افکار را در قصیده ی خویش به تصویر کشیده است.

واژگان کلیدی: *ایلیا ابوماضی، طلاسم، خیام، رباعیات، اندیشه های فلسفی.*